

التطور العمراني والحضاري البصرة

د. جعفر عبد الدائم المنصور

مقدمة

مرت البصرة في هذه الحقبة التاريخية بتطورات كثيرة حيث ان سكن المدن لم تكن تمتلك مقومات الجذب الحضري انداك كما هو الحال في الوقت الحاضر الا بنطاق محدود حيث افتقرت المدينة الى جهود الكثيرين من سكان الذين يمثلون عصب الحياه فيها واداة تطورها وعصرها المهم في تشكيل الحضاره وبناءها¹

لقد تعرض تاريخ مدينة البصرة الطويل الى اضطرابات وغزوات وحروب فضلا عن الاوبئه الفتاكه الطاعون والكوليرا التي تخللت تلك التوترات البشريه كما كان للبيئه الطبيعيه كالاوار المحيطه بمدينه البصره من الشمال وارتفاع درجات الحراره الجو وثقل الهواء كل هذه المشدات مجتمعة او متعاقبة في حدوثها حددت في هذه الحقبة من ايقاع تطور المطلوب لمدينه البصره²

¹ عبد الحميد القيسي وما هو يعقوب موسى، ديناميكية البصرة في عيون التاريخ والرحاله 1398-1914، مجله اداب البصره، العدد 63،

2012، ص 828

² عبد الحميد القيسي و ماهر يعقوب موسى، المصدر السابق، ص من 828

لقد كانت البصرة مسوره وتتخلل السور خمسة ابواب هي باب بغداد و باب الزبير و باب السراجي و باب المجمع و باب الرباط اما حدود مدينه البصره يحدها من جهه الشرق شط العرب ومن جهه الغرب الصحراء الممتده حتى مدينه الزبير من الشمال نهر الخندق ومن الجنوب نهر الخوره ويشق المدينه نهر العشار الذي يسقي النخيل والاشجار ويستسقي منه اهله كذلك تدخل فيه السفن الصغيره تجلب الامتعه من رصيف العشار الى الجمرک وبما ان تقاطع الجداول الفرعيه مع الانهار الرئيسيه ادى الى تقسيمها الى عدة محلات بحيث اصبح لكل محلة وقرية نهرها مما جعل الاتصال بينهما يتم بواسطه القوارب المحليه الامر الذي جعل بعض السواح اجانب يطلقون على البصره (بندقية الشرق)³

وتقع في القسم الجنوبي من العشار عندما مدخل المدينه غالبيه البيوت ومعظم الاسواق وسراي الحكومه ومحكمه التجاره ودائره البلديه ودائره الجمرک اما مساكن اهله تسعه اعشارها ساوت التراب يرجع ذلك الى ما فعلته الاوبئه التي اجتاحت

³ موسوعه البصره الحضاريه، البصره خلال العهد العثماني الاخير، الباحث يقضان سعدون العامر، كليه التربيه، جامعه البصره، ص 248

البصره و الى اهمال الولاة وعدم شعورهم بالمسؤوليه
كذلك الى عدم اهتمام السلطه المركزيه بالعراق بصورة
خاصة⁴

ان التوسع العمراني في الولاية تناسب طرديا مع فترات
الاستقرار السياسي النسبي وخاصه في عهد اماره افراسياب
التي شهدت الالوية في عهدها نموا وتسابقا في بناء القلاع
والاسوار و الشؤون العمران الاخرى⁵

من الاحياء السكنيه تعد ركن الرئيسا من اركان المدينه
وملامحها الاساسيه وهناك صفتان متلازمتان لتلك الاحياء
وهما العلاقه الترابطيه بين الفوارق العرقيه والدينيه واماكن
الاقامه و السكنى و الاخرى هي الاستقلال النسبي لكل حي
او لكل مجموعه من الاحياء معا

اولا المحلات

في الواقع عده المحله الوحده الاساسيه للمدينه العراقيه ولم
تشذ مدينه البصره عن ذلك تكونت المدينه من عدد من
المحلات حسب طبيعه حجمها و قابليتها على الاتساع

⁴ موسعة البصرة الحضارية ، يقطان سعدون العامر، المصدر السابق، ص 249
⁵ حسين علي عبيد المصطفى، البصره في مطلع العهد العثماني دراسه في تاريخ الاجتماعي و العمراني 1546-1668، الطبعة الاولى،
دمشق، 2012، ص 71

واحتوت كل محل على شارع رئيسي او اكثر وتوجد في كل محل تقريبا خاصه المحلات الكبيره مسجد وحمام ومقهى خاص وتنسب المحله اما الى جماعه التي سكنتها وبهذا تصبح المحله وحده اداريه ذات صفات مدنيه قبايله في نفس الوقت كمحله اهل الدير او تنسب المحله الى نقطه دالة كشجره مثل محله العباس او الى حرف التي تشتهر بها تلك المحله مثل محلات سوق الغزل و السيف و الميدان العبيد و غيرها او الى شخص مشهور مثل محله محمد الجواد وحسن دادا او الى جهه معينه مثل محله المشراق او القبله⁶

اما بالنسبه الى القلعه فمن الممكن ان القلعه التي بناها المغامس في الضفه الجنوبيه الى نهر العشار كانت البدايه لنشوء وحده معماريه في مدينه البصره حيث احيطت بالقلعه محله صغيره سميت بالديوانيه و تم بناء سورہ عليها لكونها تمثل مقر الحكم في المدينه وقد قسمت محله الديوانيه الى محلتين الحداده و الحكاكه القبله و الحكاكه ولقد تزايد انه مو المحلات تدريجيا محلات جديده مثل محله الساعي

⁶ حسين علي عبيد ، المصدر السابق ، ص ص 114 115

لا فائن الى ذلك ان الولاہ العثمانيين عند احتلالهم للبصره
انشاء اول هم مقررات لحكمهم على شكل قلعه و بيوت
كبيره سميت بالسراي⁷

ان المتمعن في النسيج العمراني للمحلات يجد منطقه محله
الديوانيه و المشرق و الباشا و السيمر و المحلات الاخرى
المتلاصقه معها تشكل الجزء الاكبر من محلات مركز
المدينه ثم تتباعد المسافات بين المحلات في اتجاه الشرق
نحو شط العرب فنجد هناك محله المقام التي اشار اليها كل
الرحاله الذي جاء الى البصره عن طريق نهر العشار
ومحلات بلد اسيااس ولعلها واقعه مقابل مقام⁸

ثانيا الاسوار

كان الوظيفه الدفاعيه في تخطيط المدن اهميه واضحه في
تلك الازمنه سواء كان ذلك في العهد الاسلامي او ام
العثماني حيث يتم تصوير معظم المدن للضمان اتصالها
بالمناطق و الاقاليم المجاوره في عهد اماره افراسياب كان
من ضمن اهتمامات بالعمرانيه بناء اسوار المدينه وتبدا هذه
الاسوار على شكل مستطيل غير منتظم بسبب محاضره

⁷ عبد القادر باش اعيان، البصره في ادوارها التاريخيه، بغداد، 1961، ص 72

⁸ حسين علي عبيد، المصدر السابق، ص 119

الاسوار مع نهري خورة و الخندق وقد بنيت الاسوار من اللبن ووضع بعض الابراج المستديره في الاجزاء المهمه من السور ومعظم هذه الابراج و متوجه بالشرفات وفي اعلى استمرو في اماكن متفرقه منه توجد مشارف توضع فيها المدافع او رماة البنادق⁹

وان حاله السور العمرانيه ارتبطت في الاحوال السياسيه و الاقتصاديه لمدينه البصره وشخصيه الوالي واهتمامته الحضريه وقد بقيت هذه الاسوار شاخصا حتى نهايه القرن التاسع عشر وتجد ان الداخل من بوابات هذه الاسوار نحو مركز المدينه يرى المنشآت العمرانيه من قلعه و قصر الوالي و اماكن المؤسسات الدينيه و الاسواق والمحلات السكنيه

لقد تميزت المحلات بالتصاق مساكين ولم يبق ما يغسلها غير الطرق والاسقف ضيقه في المدينه طابع التماسك يساعد ذلك البيوت على مواجهه الرياح واشعه الشمس اللاهبة خلال فصل الصيف ولقد امتازت المساكن في البصره في جملته امور جاءت نتيجة تفاعل عناصر الاجتماعيه و الاقتصاديه فضلا عن متطلبات الاحوال المناخيه المجتمع العربي حيث ان الامور عدم الاهتمام بالمظهر الخارجي

⁹ حسين علي عبيد، المصدر السابق، ص 123

جعلت لك المسك المغلقه من الخارج و مفتوحه من الداخل لكي توفر الحماية لساكنيها ضد قوات العدو و نجد ان ابواب البيوت مصنوعه من الخشب ويتكون الباب من مصارعين من الخشب السميك تسبب فيه مطرقه تستخدم ما شكل قبضه اليد او شكل راس الحيوان كما ان المسكن يتكون من عده غرف وبعضها يقع تحت الارض السرداب يلجا اليه الناس عندما ينتابهم التعب بسبب حراره الشمس اما المطبخ واماكن الماء وتوضع كلها في الطابق الارضي ام اصاله و التي يستقبلون فيها الضيوف قد تكون في الطابق الثاني¹⁰

ثالثا بيت الجمره و المنشآت العسكريه و البحريه

بيت الجمره وهو منشاه حكوميه فنيه على شكل برج كبير يقع في نقطه التقاء نهر العشار بالشرف العرب كان يتولى فرض واستيفاء الضرائب على البضائع الداخله او الى مركز الولايه عن طريق نهر العشار قبل تفريغ السلع والبضائع في محله المنكسار

كما هناك المنشآت العسكريه البحريه للولايه في منطقه المناوي ولا توصف بانها قائد البحريه العثمانيه الثانيه لهم بعد قاعد العثمانيه في السويس جزيره الذكران المناوي

¹⁰ حسين علي عبيد، المصدر السابق، ص 125

اصبحت مكان لرسو السفن الحربية منذ عهد راشد بن
مغامس

كما ان هناك منشآت اتخذت قسم منها طبعاً حربياً مثل
القلاع التي بنيت في مناطق مختلفه من الاوليه والنواحي
البصره و القرنه حظيت هذه المنطقه بزياده ال عمران و
بناء القلاع في احد حسين باشا حيث تسعه عمرانها
وتحصينها كما كان هناك منشآت حكوميه اخذ الطابعه مدنيه
تجاريا¹¹

رابعاً المؤسسات الدينية

اول المسلمون اهتمام الكبيره لدور العباده حتى ان المتتبعين
بهذا الشأن لاحضر عندما اي مدينه اسلاميه بروز المسجد
في اولوياتها حيث يبني في وسط المدينه او مركزها
الرئيسي وتبني بجواره المدارس الدينيه ثم المشآت الاخرى
ان المعلومات التي وردت عن بدايه تاسيس جامع الكبير في
البصره قليلا و تقتصر على ما ذكره الشيخ يحيى البصري
عن دور الشيخ محمد امين الكواز في بناء مسجد جامع في
بصره الجديده بمساعده الشيخ سراي عبد السلام كما بين
الشيخ عبد القادر مسجدا جامعاً في قريه الكباسي الكبير في

¹¹ ادموف الكسندر ، ولايه البصره في ماضيها وحاضرها، البصره، 1982 ، ص 254

ناحية شط العرب و بني في ابو الخصيب مسجد جامعين
 احدهما في قرية مهجران و الاخر جامع قرية السراجي وتم
 ايضا ببناء فرحه و قباب الصحابه في مصر القديمه منها بناء
 قبه الزبير بن عوام وتجديد بن عقبه الحسن البصري ومراقده
 الصحابه هناك ومنها ضريح الشيخ عبد الله بن سهل
 التستري¹²

رابعاً النشاطات الاقتصادية

مارست البصره خلال تلك الفتره جميع الانشطه الاقتصاديه
 و لكن بدرجات متفاوتة تبعا لتاثير عوامل عديده في هذه
 النشاطات فكان طبيعه البيئه والمناخ اثر في تحديد نوعيه
 النشاط الزراعي و المحاصيل الزراعيه في البصره فتره
 البصره وظروفنا فيها هي اكثر ملائمه نجاح زراعه النخيل
 وان اغلب الزراعه سكان البصره هو النخيل فضلا عن
 النخيل فقد كان سكان البصره يزرعون الحنطه والشعير
 والرز و السمسم والماش والذره وانواع من البقول

¹² عبد القادر باش اعيان، المصدر السابق، ص 50

وشهدت مدينه البصره توسعا كبيرا فاصبحت تشمل محلات منها القبله و البلوش و السيف و سوق الدجاج و المشرق و الحكاكه و الجسر العبيد والفيستان القصب و عز الدين و ابو الحسن و يحيى زكريا وجسر الملح و السمر و الكرسي و العباسيه و الكرازه و مناوي باشا كذلك كان هناك اماكن للتعليم ولكن مازال تعليم دينيا فكانت هناك بناء ملحق بالجامع او المسجد تجري فيها العمليه التعليميه يطلق عليها (المدرسه) التي كان لها شئنا في البصره مدرسه الشيخ عثمان بن سند و مدرسه السليمانيه و مدرسه الرحمانيه في محله السيف و المدرسه الرؤوفيه في محله القبله و المدرسه الحاليه في محله القبله ايضا كما كان هناك الكتاتيب ولم يقتصر التعليم فقط على الذكور بل على الاناث من فتيات تعليم القراءه و الكتابه و قصار السور من قران الكريم¹³

لقد شهدت البصره توسع خلال ولايه مدحت باشا للعراق فقد اهتم في المنشآت الحكوميه وخاصه في ما يخص ميناء البصره حيث اصبح ميناء البصره اوائل القرن الحالي قنصل روسيا القيصريه في البصره قبل الحرب العالميه الاولى يضم ترسانه بحريه ورشه تصليح محركات السفن و المدافع و الاسلحه الملحقه بها وكذلك اداره الميناء و دائره الجمارك ودائرة الحجر الصحي و مكتب قائد الاسطول العثماني

¹³ موسوعه البصره الحضاريه، يقضان سعدون العامر، المصدر السابق، ص 262

الصغير ومكاتب جنود البحري كما كان هناك ترسانه لصنع
القوارب نقل المسافرين وكذلك السفن الكبيره الحجم نقل
البضائع التي تقع خلف دائره الجمارك¹⁴

¹⁴ ادموف الكسندر ، المصدر السابق، ص ص 38

قائمة المصادر

- 1- عبد الحميد القيسي وما هو يعقوب موسى، ديناميكيه البصره في عيون التاريخ والرحاله 1398-1914، مجله اداب البصره، العدد 63،
- 2 - عبد القادر باش اعيان، البصره في ادوارها التاريخيه، بغداد، 1961،
- 3- حسين علي عبيد المصطفى، البصره في مطلع العهد العثماني دراسه في تاريخ الاجتماعى و العمرانى 1546-1668، الطبعة الاولى، دمشق
- 4 - موسوعه البصره الحضاريه، البصره خلال العهد العثماني الاخير، الباحث يقضان سعدون العامر، كليه التربيه، جامعه البصره
- 5- ادموف الكسندر ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، البصرة ، 1982